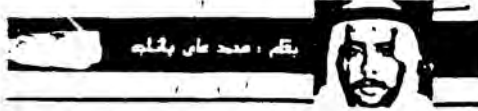


المصدر: المدينة المنورة

التاريخ: ١٥ مايو ١٩٩١



التنظيم الدولي الجديد

.. خلفية تاريخية

أحداث منطقة الخليج خلال الحريف الساخن كانت التجربة الأولى لمدى فاعلية وجدوى تنظيم دولي جديد لاحت بوادره منذ بدايات السبعينات بسعي العملاقين الروس والأمريكي للرفاق وقهواء قيادة جماعية للعالم من قبل الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن تنعكس ملامحه في:

- إبدال التشاور والاتفاق محل التنافس والصراع بين تلك الدول.
 - تصفية بؤر النزاع على خريطة العالم. تلك التي ظلت مصدرا دائما لتكاثر تكون فرصا للتوتر المهدد بالتحول إلى نزاع ساخن بين العملاقة غير مرغوب فيه وقد لا يكون من المستطاع السيطرة على تداعياته.
 - مراجعة المفاجئات التي قد تفجرها النزاعات الإقليمية وقد ينتج عنها تهديد للاستقرار والسلام الدوليين وحلها بأسلوب الحوار ثم القرار الجماعي. المثال الأوضح أزمة الخليج.
- هذا التنظيم ليس بدعة تم اكتشافها ولا هو مبني على حسن نوايا حل في لحظة صفاء جعل العالم يؤمن فجأة بالسلام والتعاون بدلا عن الشقاق والتحدى. انه ترجمة دقيقة ومحسوبة لمجموعة حقائق لم يعد بالإمكان تجاهلها أو التغافل عنها. وهو لا يعني ان العالم كان يعيش قبله حالة من الفوضى والعشوائية وعدم الانضباط فللطبيعة قوانين صارمة تفرضها على المجتمع البشري كما تفرضها على المادة الصماء. وهنا كما هناك لا فوضى ولا مصادفة. والسياسة الدولية محكومة من قبل ومن بعد بقاعدة «توازن القوى».

نظرة إلى التاريخ القريب ربما اعانت على تبيان ذلك. وليس التاريخ أحداثا ولت لن تعود انه درس يكرر أخطاؤه من لا يستفيد منه والحكمة الذهبية «من لا يقرأ التاريخ يخسر المستقبل».

مفهوم التوازن يعني وجود وحدات متناقضة المصالح ساقطتها تناقضاتها إلى صراع أسفر عن نتائج قررها تناسب القوى بين تلك

الوحدات وتظل تلك النتائج مستقرة إلى حين هذا الاستقرار المؤقت هو «توازن» يبقى ما بقى نسبة القوى على حالها قلما تغيرت نشأت وتوتر فصراع فعودة إلى الاستقرار من جديد عند مستوى آخر للتوازن. فعند قرائتنا للتاريخ نجد انه منذ انتقلت شمس الحضارة إلى أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت الدول الوطنية في أوروبا هي الوحدات المتناقضة المصالح.

وفكرة الدولة الوطنية حلت تاريخيا محل الامبراطويات ذات الاساس الديني ومن نماذجها التي بقيت حتى تلك الفترة التي ندرسها الرومانية المقدسة والنسب والمجرى الشرقية الارثوذكسية تجسدها روسيا القيصرية ثم اخيرا الامبراطورية العثمانية. والثانية كتلت اكبرهم تماسكا وقابلية للبقاء نحو التكوين حس وطني مشترك يجمع لجزءا هامة مترامية الاطرافهم فرنسا وبريطانيا كانتا اسبق الجميع الى مفهوم الدولة الوطنية انسلاخا من تلك التنظيمات ذات الاساس الديني كما مكنتها ظروفها من التبنى الامثل والاسرع لافكار الثورة الصناعية والاستفادة من القدرات الكامنة للتحويل الصناعي.

في منتصف القرن الثامن عشر بدت فرنسا مهيمنة اكثر من غيرها لتتبعها مكانة المحرك الاول على الساحة الدولية لاسباب متعددة نذكر منها ثلاثة هامة عدد السكان وانتاجا ضخما متولفا صناعيا ونظاما سياسيا مركزيا قادرا على تسخير وتوجيه الامكانيات خدمة للمصلحة الوطنية رغم العيوب الداخلية التي تختفي وراء تلك القبضة المركزية. اما الوحدات الاخرى التي تنافس فقد كانت : ● امبراطورية

الابسيج (النسب والمجر) ذات الاحجية المحافظ والقائمة على تنظيمات شبه اقطاعية متمتعة للقرون الوسطى ومقاطعاتها الموزعة في وسط اوربا وشمال ايطاليا كيانات هزيلة لها شبه استقلال ذاتي وعرضه للاقتراض من قبل القوى الاكبر في الغرب «فرنسا» وفي الشرق «روسيا». ● روسيا القيصرية العملاقة الفامضة من المحترف به ان طاقتها البشرية والزراعية لاحود لها. الا ان تأخرها التقني وعتاقه تنظيماتها عاقاها عن

الاستغلال الامثل لتلك القدرات فهي متخلفة نسبيا عن اقاليم غرب اوربا درجات.

● انجلترا الساحر المعجيب ولنا هنا وقفة اطول. فالديمقراطية الفريدة التي تحققت هناك داخليا كانت قد رسخت ووازنت بين مصالح الفئات الوطنية دون خضوع للغوغائية ودون ان تفقد النخبة الحاكمة قدرتها على اتخاذ القرار السليم بالسرعة المطلوبة فقدمت بذلك نموذجا يندى اتوقراطية الادارة في فرنسا وروسيا والاستقرائية شبه اقطاعية في امبراطورية النمسا. وكانت نخبتها الحاكمة قد اقرت بحكمة وذكاء سياسة عامة مبنية على تقديرات سليمة لمواضع القوة والضعف في الموقف البريطاني مستهدبة بالمبادئ الآتية :

● الامن النسبي لبريطانيا كجزيرة فأى غزو مرتقب لا محالة يكون عن طريق البحر وطالما بقت البلاد مالكة لا تقوى اساطيل العالم فليس هناك ما نخشاه.

● غاية اى امة القدرة الاقتصادية والهيمنة السياسية والمغامرات العسكرية ان لم تخدم هذا الهدف هراء لا طائل وراءه يؤدى لبعثرة القوة لابنائها.

● التوسع الصناعى هو السبيل لبناء قدرة الامة الاقتصادية. وقد جاء هذا التوسع على حساب الزراعة. ولم تكن الامكانيات الزراعية فى انجلترا من الاسس كبيرة.

الا ان الصناعة تحتاج مواد خام «بعضها من الزراعة» وتحتاج سوق لتصريف منتجاتها.

● التجارة الخارجية ضرورة حيوية لانجلترا. انها القناة التى تمد الصناعة بالمواد الخام التى تحتاجها ولامداد العمال المتزايدة اعدادهم بالغذاء الرخيص وكلا الامرين لا تقوى عليه الزراعة الوطنية المتقلصة. وايضا هى القناة التى تنصرف اليها الانتاج الصناعى فالسوق هو المحدد لمستقبل

الصناعة فى اى اقليم وامكانيات نموها.

● الامن القومى والتجارة الخارجية كلاهما يعتمدان على وجود اسطول قوى لحماية الجزيرة وطرق المواصلات اليها.

هذا مارسخ فى النهاية المبدأ الشهير «ضرورة احتفاظ انجلترا باسطول بحرى يكافئ فى قوته اساطيل اقوى دولتين بحريتين تاليتين».

● لاشان لبريطانيا بمنازعات القارة التى لا تنتهى. ولا تتدخل فيها بجديّة الا فى حالة واحدة «اذا تعاظم نفوذ احدى القوى القارية بشكل يهدد بابتلاع الاخرى» اى انها لا تتدخل الا للبقاء على التوازن والحفاظ على الوضع الراهن.

فى ذلك الوقت كان هناك ايضا بعض القوى الهامشية.

- اسبانيا والبرتغال كل منهما توقفتا ان تكونا قوة بحرية لها وزنها وتوارتا الى الظل.

الدولة العثمانية فى النزاع الاخير ومع ذلك ظلت الى آخر لحظة خصم روسيا الاساسى وربما لم يبق عليها سوى هذه المحصومة. فقد بات واضحا ان مصيرها معلق برغبة انجلترا وفرنسا اللتين انحازتا اليها فى نزاعها مع العملاق الروسى غيرة منه والاهم لانها لم يقررا بعد ماسيصنعاه بامبراطوريتها.

الولايات المتحدة لازالت مشغولة فى اقامة الحلم الأمريكى مجتمع الثروة والسعادة للاقليات المضطهدة القارة من أوروبا وحسبها من الاخرين ان يدعوها وشأنها.

تلك هى الوحدات المتصارعة مع صورة سريعة عن الجو العام الذى كانت تتحرك فيه ثم وقعت الواقعة وشبت الثورة فى فرنسا وكانت اساسا ضد اساليب القرون الوسطى فى الحكم والادارة فمن الطبيعى ان تجد فى امبراطورية النمسا خصمها الاول فاشتعلت الحرب بين الاثنين. وهى الحرب الذى دفعت بنابليون بونابرت الى السلطة فى اقوى دولة فى العالم.

فى رجوعنا الى الحقبة الزمنية لتاريخ الواقع الدول منذ منتصف القرن الثامن عشر ليس حشوا لاغناء فيه. فلتاريخ مفيد فى تبيان دوافع الوحدات الدولية والكيفيات التى تقاسر عن طريقها التعبير عن هذه الدوافع. والأولى تكاد تكون ثابتة ثبوت الفرائز عند الانسان الفرد فهى غرائز دولية ان صح التعبير. اما الكيفيات فيمكن ان تختلف حسب ظروف الواقع التاريخي.

ثم الحاضر ماضو الألتضى يتقدم والماضى هو المستقبل ينى. فلا غنى عن الرجوع للتاريخ لمن يود فهم الحاضر وبناء المستقبل.

توقفنا في الحلقة الماضية عند قيام الثورة الفرنسية وصدامها مع امبراطورية الهابسبرج النمساوية عدلما لامر منه املاء مجاور الاقاليم وتناقص افكار وتوجهات الطرفين. وقد كلفت الحرب النمسا مقاطعاتها في الراين واطاليا بعد سلسلة من الهزائم الهينة لم تزد الى حسم الموقف او انتهاء العداءة بل اضرمتها.

هكذا اصبت فرنسا صاحبة الكلمة العليا في وسط اوروبا واطاليا وثبت ان امبراطورية الهابسبرج لا تستطع ان تكون ندا لنابليون بونابرت الجنرال الفرنسى الذى لمع نجمه في حروبه معها مما مكته في النهاية من تبوء سدة الحكم في فرنسا.

وكانت السهولة التي كسبها نابليون حروبه ضد النمسا الانغراء الكافي لمواصلة الفتوح وتكوين الامبراطورية الفرنسية.

عين انجلترا لم تكن تخطئ عن مراقبة ذلك الصراع باهتمام. اكتفت بدائيا بالتشجيع المعنوى للنمسا لكن ما لم يظهر احد الطرفين على وشك ابتلاع الاخر حتى اخذت تحريك التحالفات ضد فرنسا وتسامر في دعمها ماديا مستغلة تراءفة المعروف.

بالنسبة لقيصر روسيا لم يكن التوازن في القارة شاغله الاول. وارى الوقت قد حان للحديث عن هوم القيصر العقدة الاولى لعملاق جليد الشمال التي ظلت تؤرقه وتحدد سياسته وتوجهاته للنهابة. الوصول للبحار الدفينة. فروسيا الاخذة باسباب الصناعة والمنشوقة للحاق بالغرب تعلم ماتعنيه التجارة الدولية بالنسبة لها. والبحر مطية التجارة وما من نافذة لها عليه غير البلطيق والبحر الاسود.

في توسعها شمالا باتجاه البلطيق اصطدمت بدويلاته الضعيفة وجنوبا نحو البحر الاسود بالدولة العثمانية. نفس هذا الشوق للمياه هو ما حدا بها ايضا للتوسع شرقا لتجد موضع قدم في المحيط الهادى الا ان وصولها للبلطيق والاسود لم يحل المشكلة فالاول اكبر قليلا من بحر ماني تتحكم الدول الاسكندنافية في مدخله وتسيطر على طرق الاقتراب منه اساطيل دول لا قبل لها به.

اما البحر الاسود فمحتقو فعلا لا يجازا بيوغاز تسيطر عليه تركيا التي يمكنها قفل مضيق البسفور والدردنيل بقذيفة مدفع. وهذه الحقيقة هي ما جعل العثمانيين العدو الاذلى للروس بالاضافة الى تنافسهما في البلقان. وقد اثبتت القولة العلية انها عفة كزود في وجه اطماع القيصر سولا لقراها الذاتية او لدعم القوى الاوروبية الثلاث «النمسا وبريطانيا وفرنسا». الاخيرتين لا تريدان للدب الروسى ان يتفلس بالمياه بفرض احكام الرقابة عليه او ان لكل منها اطماعا في امبراطورية آل عثمان او ربما لمجرد الفيرة. اما النمسا فلان لها اطماعا في البلقان تتعارض واطماع الروس لكنها على استعداد ان تتحالف معهم ضد عدوها الذي لا يقر وهو الحلف الذي تم بباركة انجلترا.

ادرك نابليون ان عدوه الاول ليس امبراطورية النمسا بل العنصر الورقى ولكن انجلترا مهندسة التحالفات ضده في القارة فاخذ بمشدد جيشا في بولون لغزو الجزيرة وانفق مع اسبانيا حليفه الاضية منذ البداية على المشاركة في اسطول الغزو. لكنه كلما تقدم في المشروع زاد اقتناعا بعظم المهمة واستحالته حمة مرق الاميرال البريطاني تلسون الإسكندر القويستى. واسباني في معركة الظرف الاغر و انتهى المشروع قبل ان يبدأ.

واستعد النمساويون والروس للقاء بدورها فحشدا الجيوش. برشاقة تحسب له حرك نابليون فيالقه المجتمعة في بولون وانجه بها الى قلب القارة فلوغق بالنمساويين في «اولم» ثم هزم الجيوش الروسية النمساوية المتحالفة في «اوسترليتز» احدى اهم مفاخر العسكرية الفرنسية فوجدت النمسا نفسها مضطرة لتوقيع معاهدة «بريسبورج».

مملكة بروسيا لم تتحرك الا متأخرة اكثر مما يجب وبروسيا هي اكبر المقاطعات الالمانية والتي سيقدر لها فيها بعد صتعة وحدة المانيا. وهي لم تتحرك الا دفاعا عن استقلالها فدخلت في حلف مع بريطانيا وروسيا ولكن في ذات السنة التي لرتأت فيها التحرك دخل نابليون برلين العاصمة بعد ان اوقع الهزيمة ببيوشها.

اما روسيا فلم تقاوم طويلا وبعد محاولتين أخريين في الميدان اقتنعت بالتفاهم مع فرنسا وضد انجلترا. ولوهلة بدت الهيئة الفرنسية على القارة واقفا غير قابل للزوال في غير مقدور انجلترا الوحيدة للغزولة ان تغيره فلا هي مستطبعة لفتحهم البر على نابليون ولا هو مستعد لاجتياز البحر اليها.

امام هذا الواقع تفتق ذهن نابليون عن الحرب الاقتصادية فجزيرة اصحاب الحوانيت تموت وتذوى بايقاف التجارة معها. هكذا حاول ان يفرض على دول القارة حظر التعامل مع انجلترا. الا ان هذا الاجراء لا يكون فعالا الا اذا طبقه الجميع بحساس ووجود ثغرة او اثنتين كفيل بافساد المشروع وجعله غير ذي اثر. لذلك اخذ في فرضه بحزم على اوروبا الحاضنة كما اقنع به قيصر روسيا الذي اصبح الان حليفه على شرط ان يكون حلفا بين متساويين.

الا ان الحصار لم يثمر عن النتائج المتوقعة فالتجارة مصلحة متبادلة للطرفين والمطر بعض بالمقاطع والمقاطع هكنا اخذت البول التي قسرت على تطبيقه تنذر وتتحايل على النخل عنه. الا انك لا تستطيع ان تقاصر تجاريا دولة بحرية ذات اسطول اقوى من اسطولك دون ان يسفر الامر عن نتيجة عكسية فتجد نفسك تحت المحاصر هكذا اخفقت فكرة الحصار.

هناك حقيقة يغفل عنها صانع التاريخ خاصة من أسرفت عليهم الانتصارات حتى
أسكرتهم أن لكل شيء مدى للفرد مدى كبرها بلغت عقيرته وللامة مدى معها بدت
مكتسمة العظمة غير محدودة الامكانيات

أحيانا يجيب غرور القدرة عن الزعيم هذه الحقيقة. ولا أحد يعذر عن الضرور
كتأليبون فمن ضابط مقصور الى جنرال حقق لجيوش فرنسا انتصارات بدت وكأنها
معجزات تشيد بعقيرته جعلت منه معشوق الجماهير ومحط فخرها القوم فأقامته على
قمة السلطة مفوضة له المزيد منها حتى نصب نفسه في النهاية امبراطورا.

وعندما تلثم الشخصية التاريخية بالامة لا يعد مسورا المتفرقة بين الزعيم والامة.
انه خطأ من الاخطاء الشائعة في التاريخ لا يمكن تجنبه الا بالابقاء على خطوط التمييز
واضحة بين الفرد محدود الوجود والدور والامة الخالدة مما ساعد لايته فيها بعد.
أسكرت نشوة النصر الامبراطور الفرنسي فظن ان لحدود لقدرته ولاحد لارادته
فوقع في الاخطاء

● آخر بمصلحة الدول النخبة له في أوروبا بالمحصار الذي فرضه على بريطانيا.
● اساء معاملة الكنيسة فصادر ممتلكاتها وعامل البابا كمجرد نائب له للشؤون الروحية
فلم يثر ضده رجال الدين فقط بل وعامة الناس.

● فاته ان الحروب تنهك المنتصر كما تنهك المهزوم فبعد أكثر من عشر سنوات من حروب
تكاد تكون مستمرة بات حال فرنسا المنتصرة لا يفضل اعياء حال النساء المهزومة.
● تصرف وكأنه صاحب القرار الوحيد في أوروبا ويمتص الحقة ازال ملك اسبانيا حليفه
المخلص عن عرشه ليحل محله اخاه جوزيف بوناپرت ملكا بحكومة عبيلة تابعة لفرنسا.

فكان هذا أكثر مما تستطيع أوروبا او الشعب الاساني السكوت عليه.
اندفع الشعب في اسبانيا مدفوعا بمشاعره الوطنية ويتحريض رجال الدين وكان دأها
لم في اسبانيا وضع خاص فقاوم تلك الاجراءات وارسلت انجلترا جيشا الى اسبانيا لدعم
الحركة الشعبية.
حركت الاحداث شوق النساء للانتقام فعادت ترفع راية التحدي بدعم من بريطانيا
كالعادة.

انتقل نابليون الى اسبانيا فاقف الكوارث التي تعرضت لها الحامية الفرنسية وحسن
الموقف نوعا لكن القلائل ظلت للنهاية ولم يهدأ الوضع لهما للفرنسيين هناك. ثم اتجه بخيرة
جيوشه الى النسا للمرة الثانية طرق ابواب فينا بالموقع فارضا عليها اتفاقية جديدة
توجت هذه المرة بزواج امبراطور فرنسا من ارشيدوقة النسا ماري لويز.
هكذا استقر الوضع على مايرضيه مع النسا وبقي غير محسوم تبع بريطانيا وظلت
روسيا تنتظر مايقدره بشأنها انتظار الوائقي من نفسه لا الفلق.

وقد قرر نابليون الا يكون في القاهرة راس مساو لرأسه. وفي عام ١٨١٢ توجه الى
روسيا على رأس الجيش الكبير ٦٠٠٠٠٠ مقاتل نصفهم فرنسيون ولم يملكه الروس ابدأ
من معركة حاسمة فكانوا دانسا بتراجعهم متبعين سياسة الارض المحروقة دافعين
الغازي للتوغل اكثر فأكثر في مجاهل لانهاية لها يحوطه فيها العداء من كل جانب. وفي
معركة موسكو فراجع الجيش الروسي دون ان يمكن العدو من تطويق او تسديد ضربة
قاضية اليه.

وعندما دخل نابليون موسكو وجدها تحترق وتكاد تظلم من السكان فقرر البقاء
والاقامة في قصر الكرملين الى ان توافيه رسالة من القيصر بالاستسلام لشروطه. لكن لا
الرسالة اتت ولا كان هو مستظيما البقاء في تلك الاصقاع التي يحوطه فيها العدو من كل
جانب وتترقب حياة جيشه فيها على خط وحيد للامدادات يمتد مئات الاميال الى الغرب
وعرضه لهجوم في كل نقطة عليه. وعندما قرر الانسحاب والقفول اختار أسوأ الاوقات
فخسر في طريق العودة بفعل الشتاء والعدو اضعاف ماخسره في المعارك ولم ينسج من
الجيش الكبير الا ٢٤٠٠٠ جندي عادوا كأشياء بشر.

وهاهي لحظة الخلاص للشعوب المتعطشة للحرية والتحرر من نير القبضة الفرنسية قد حانت فاشتعلت الانتفاضات في كل مكان . هكذا دخل التسويح الفرنسي في مرحلة الارتداد . ومهما قيل عن نبل مقاصد نابليون ، ومن انه كان يأمل باوروبا موحدة بقوة السلاح ، فان اي حركة تاريخية تخفق في التعامل مع حقائق الواقع مألها الى القتل . والأسباب التي ادت لنهاية نابليون كثيرة . اهمها .. - اي مشروع لاترصد له القدرات الكفيلة لانجازه لا يعدو ان يكون حلما . فاذا اصر على بلوغ حلم مع عجز الامكانيات شد سطاط القصرة الى اكثر مما يحتمل فتتمزق قدرة الأمة في سبيل وهم غير قابل للتحقيق وتصبح بالتال مكشوفة لاعادتها فلا تتمكن من الصمود للضربات المضادة .

- كانت المرحلة مرحلة مد للشعور القومي . التي كتلت الثورة الفرنسية احد عوامل الهابة ونتيجة له في نفس الوقت . والشعور القومي هو بطبيعته ضد نظام الامبراطورية . قلاصراطوريات تنظيم سياسي يضم عددا من الشعوب مختلفة الاجناس عادة ماتكون الهيمنة فيها لجنس واحد هو للسيطر على السلطة المركزية مما يدفع الشعوب الاخرى بعامل الشعور القومي الى الانسلاخ عنها . وكان ذلك بشكل عنصر مقاومة وخطرا على امبراطوريات النمسا وروسيا وانجلترا والدولة العثمانية وعندما اخذت فرنسا في تكوين امبراطورتها تعرضت لنفس المقاومة .

- الحرب احدى وسائل بلوغ الهدف . فهي ليست غاية في ذاتها انما وسيلة ممكنة للسياسة . وقد اغرت الانتصارات نابليون باعتمادها وسيلة وحيدة ، كما مكنته تلك الانتصارات من الافراد بالسلطة فلم يعد يرى سوى قراء الذاتية وذلك مناقض لمفاتيح المجتمع الاووي ذي الشرائع والجماعات مختلفة المصالح وفي واترلو اخر معارك نابليون التي خسرها ضد الجيوش التحالفية بروسيا وانجلترا لم يكن سوء الحظ الذي لازم الفرنسيين هو سبب الهزيمة . وقد كانت كفتهم راجحة في مرحلة منها واقرب للنصر . فالهزيمة كانت حشية حتى لو انتصر نابليون في واترلو . وانتصاره كان سيؤجلها فقط بضع سنوات . فحقائق التاريخ وتوازن القوى لابد ان يفرض نفسه في النهاية .

هكذا حققت انجلترا بمعركة واحدة وقتت التوقيت السليم كل ماتتبعه وعادت فرنسا بالقضاء على نابليون الى سابق حجبها ودورها في القارة . الا ان الزلزال الذي حدث ما كان ليضي بلا اثر على المستقبل . التهب الشعور القومي في اوروبا واخذت كل امة تبحث عن مكان لها تحت الشمس . وتعبير الامة بمعنى شعب ينتمى الى اصول مشتركة ويتكلم لغة واحدة . وكفاح الامم الاوروبية في سبيل الاستقلال والوحدة هو ماصاغ تاريخها حتى نهاية القرن التاسع عشر ، واهم نتائجها ميلاد المانيا وايطاليا الموحدين .

مافعله بسمارك على وجه الخصوص يستحق الاعجاب والدراسة . كيف حشد الشعور القومي الالمانى ووجه وجهه سليمة . كيف لعب على تناقضات القوى الكبرى ليفرض عليها في النهاية اتحادا المانيا ليس في صالح احد منهم . منذ البداية بدت فرنسا الاكثر تضررا . فبناء حائط شرقي يمنحها من مد نفوذها شيء ماكانت تقبله بسهولة خاصة بعد عودة النعمة الامبراطورية بوصول نابليون الثالث الى الحكم فيها عقب انقلاب دستوري . الا ان معركة سيدان سنة ١٨٧٠ التي اسفرت عن هزيمة فرنسا واسر الامبراطور وسخت الوحدة السليمة التي اثبتت انها ولدت باستان . واقتضت الولايات الالمانية التي ظلت مترددة عن اللحاق بركب الوحدة خوفا من المطرزة الفرنسية وكيان من نتيجة هذه المعركة ضياع اللزاس واللورين من فرنسا . ومن يومها لم تهدأ العداوة بين الجارتين ، ربما الى يومنا هذا وان اخذت صورا اخرى من اشكال التنافس . وقد رست هذه للعداوة والى حد بعيد مسار الاحداث في اوروبا حتى نهاية الحرب العالمية الثالثة .

كانت الوحدة الالمانية واقعا جديدا قدر له ان يقلب توازنات القارة . فها هنا شعب اطلقت فيه الوحدة جبهة شبيهة بتلك التي اطلقتها الثورة في فرنسا . قادرا على استيعاب التقنية الصناعية وتطويرها لكونه لم يكن ابدا بعيدا عنها . ويملك من الموارد البشرية والمادية مايمكنه من اقامة مجتمع صناعي من الطراز الاول . وفي تلك الحقبة فان اقلها مابعد موهلا للتصنيع اذا توافر على ارضه الفحم والحديد . والمانيا غنية بالآتين

كان بسمارك يعرف ان الواقع الذي فرضته وحدة بلاده لا يهدد ان يجعل منها وفي المستقبل القرب القوة الرئيسية في أوروبا. ولكي يبني هذا الواقع في جوارح الاستقرار عليه لن يبقى فرنسا معزولة دبلوماسيا وذلك بالابقاء على جوارح التفاهم مع النمسا وروسيا. ثم ايطاليا الكيان الجديد الآخر.

ورغم ان ألمانيا تكونت اساسا على حساب امبراطورية النمسا الا ان دولتي التفاهم بينهما كانت اقوى من سبورات الحلف فالتشعب في كلاهما ذو اصول ثبوتية مشتركة. وهذه الاصول تقارب بينهما وشعوب غرب أوروبا أكثر من الشرق الذي يسود فيه العنصر السلافي والمثل في روسيا بوجه خاص، ثم البلقان. وهذا ما يجعل شعوب البلقان شديدة الجاذبية لروسيا والعكس صحيح. وقد ظل البلقان نقطة احتكاك دائم بين النمسا وروسيا لكونه مجال توسع محتمل لكل منهما وسعى فيها بعد كيف فحرت نقطة الاحتكاك تلك الموقف في النهاية.

للفروق العرقية دور في العلاقات الدولية أكثر ما يعترف به عادة. فالتجانس العرقي على سبيل المثال هو السبب وراء العلاقات الخاصة والحسنة بين بريطانيا والولايات المتحدة. وهو السبب في برود العلاقات بين غرب أوروبا وشرقيها.

وقد كان لدى الامبراطورية الروسية ماتشكومتها ذاتها. فالقوى الغربية متمثلة في إنجلترا وفرنسا ظلت الحائل بينها وبين الوصول الى المضائق، وفي حرب القرم ضد تركيا تدخلتا بشكل سافر وكطرف في القتال ضد روسيا. وكان دائما لا ينظران بعين العطف الى تطوير البلاد صناعيا وبضمان العراقيل في سبيل ذلك بحظر نقل التكنولوجيا وليس المال اليها.

وكانت هذه النقطة التي نفذ منها بسمارك في سبيل استئالة روسيا او تحييدها على الأقل.

اما بريطانيا فقد كانت ترقب من بعيد ما يجري بين الحذر وبشكل خاص تعاطف القوة الألمانية خاصة بعد ان حققت الأخيرة معدلات نمو صناعي فاقت مثيلاتها في إنجلترا وفي فترة قياسية. وزاد قلقها حين تبنت ألمانيا سياسة استعمارية بحسبها عن السوق والمواد الخام. وهو ما لا بد ان يتعارض ومصالح بريطانيا في النهاية.

وعندما وقعت ألمانيا اتفاقية الحلف الثلاثي مع النمسا وايطاليا وضع ان اختلال التوازن في القلوة وصل لاكثر مما تسمح به إنجلترا. اما فرنسا فقد كانت محقة في اعتبار ان الحلف موجه ضدها اساسا. ولما لم تكن الاجواء بينها وبين إنجلترا صافية بسبب التنافس الاستعماري فقد أصبحت روسيا هي الحليف الوحيد المحتمل هناك وقع الطرفان اتفاقية تحالف ثنائي. والدافع الروسي وراءها واضح، فالحلف الثلاثي دعم موقف النمسا في البلقان بشكل هدد مصالح القيصر.

ظلت القصة غير متعادلة بين الحلفين تميل كفتها لصالح دول الوسط. ولن يستقيم الوضع الا بمشاركة بريطانيا في الحلف الثنائي، الا ان الأخيرة تفتقد السبب الكافي الذي يقصها في سياسة التحالفات وقد قدم اليها القيصر اللامني المبرر الذي تنتظر.

فالساسة الاستعمارية التي انتهجتها ألمانيا وتوسعها الصناعي ومن ثم التجاري اقتضى وجود اسطول ضخم. وكان برنامج بناء الاسطول الذي اقرته الحكومة الألمانية أكثر مما تستطيع إنجلترا ان تتقبله فأسرعت بتصفية خلافاتها مع فرنسا وتفاقت مع روسيا ثم كفت بتحالفها فاصبح هو الآخر ثلاثيا، وانقسمت أوروبا الى معسكرين متساويين تسود بينهما التوايا البينة. مطلقان باقصى سرعة في سباق التسلح مما زاد من حدة التوتر وجعل اجواء اقشاعة مكفهرة بشذر الحرب المنتظرة للعبة المناسبة لتفرغ طربها.

وقد قدم البلقان هربيل البارود في أوروبا تلك الحجة.

ففي ٢٨ يونيو ١٩١٤ اغتيل الارشيدوق فرديناند ولي عهد النمسا في سراييفو بواسطة منظمة ارهابية من الصرب احد اقاليم يوغوسلافيا. فوجهت النمسا انذارا الى الصرب طلبت فيه السماح لها بالتدخل لتصفية تلك المنظمة واشياهاها. بما يعتبر تدخلا في الشؤون الداخلية للصرب. ورغم ان الأخيرة ردت بشكل ودي ومهدى. الا ان النمسا لم تجد الرد مقبولا فاعلنت عليها الحرب.

هذا التحرك للنمسا في البلقان لم يعجب روسيا بالطبع فاعلنت الحرب على النمسا. وتوالى التداعيات.. اعلنت ألمانيا الحرب على روسيا تنفيذا لمعاهدتها مع النمسا. اعلنت فرنسا الحرب على كل من ألمانيا والنمسا تنفيذا لمعاهدتها مع روسيا. دخلت الجيوش الألمانية بلجيكا لمهاجمة فرنسا فاعلنت إنجلترا الضامنة لحياذ بلجيكا الحرب على ألمانيا وحلفائها.

هكذا اتسعت الحرب فاصبحت شاملة وعرفت بالعالمية الاولى. وكان اول انتصاراتها دبلوماسيا حققه الحلفاء (فرنسا، إنجلترا، روسيا) عندما نجحوا عن طريق بدر الوعود في اخراج ايطاليا من حلف المحصور. اما ما هي هذه الوعود، ومخططات الحلفاء لما بعد الحرب فهذا ما نتناوله في الحلقة القادمة.



الحرب العالمية الاولى :

كأى حرب كان لكل من الاطراف المتطاحنة في الحرب العناتية الاوى اهدافه .
دول الوسط - المانيا كانت تبحث لها عن مكان تحت الشمس بين الدول الكبرى .
وترى ان الآخرين يمنعونها هذا الحق . وقد وجدت في الحرب فرصة لفرسه عليهم .
النمسا كانت تدافع عن وجودها كإمبراطورية . وهذا الوجود مرتبط بمستقبل
البلقان . مجال نفوذها الاول . يناقشها عليه الامبراطوريتان التركية والروسية .
الاولى كانت في افول . اما الثانية فالخصم الاكفر عنادا واكثر شراسة .

ايطاليا رغم انتمائها دبلوماسيا لمعسكر الوسط بموجب اتفاقية الحلف الثلاثى الا
ان قلبها لم يكن مع احد . وإنحائها بالحلف ليس اكثر من اكروبات سياسية .
مستعدة لليل الى أى جهة تعرض عليها مزايا افضل .
الحلفاء .. فرنسا اكثر الجميع حماسا للحرب . تسود استعادة الالزاس واللورين
وغسل هزيمة ١٨٧٠ . كما حظيت بموافقة حلفائها على السيطرة على غرب الراين في
حال النصر .

انجلترا كانت منزوعة لتطور القوة الاقليمية خاصة في البحر . مدركة دائما ان نمو
تلك القوة بتلك المعدلات لابد ان يقلب في النهاية ميزان القوى في اوروبا التي تفرص
دائما على المحافظة عليه . ومع ذلك لم تكن متحمسة لخوض القتال وتفضل خفض
التوتر بالطرق الدبلوماسية . ولكن اذا نشب فتكون مضطرة لاختيار جانب
فرنسا . وقد اشترطت لنفسها مستعمرات المانيا فيها وراء البحار وجزءا من ايران بعد
النصر . حسابات القيصر الروسي كانت اكثر تعقيدا ..

كان يفضل التفاهم مع دول الوسط لو استطاع التوصل الى اتفاق مرضيا مع
النمسا بخصوص البلقان . فان هذه الاول الاجهاز على امبراطورية آل عثمان
والوصول الى المضائق التركية . وهو ما يمنعه عنه بريطانيا وفرنسا بكل حزم وفقا
للاستراتيجية المعتمدة من قبل دول الغرب لمحاصرة العملاق الروسي وابقائه ضمن
حدود محدودة جغرافيا وتقنيا .

الا ان فرنسا في ظل ظروف ماقبل الحرب كانت في حاجة ماسة لحليف ولم يكن
امامها سوى القيصر . ثم لحقت بريطانيا بالركب . وعندما اكتمل النصاب وحين وقت
القتال كان نصيب روسيا اجزاء من بولندا والبلقان ثم اسطنبول والمضائق التركية .
هكذا اصبحت مصلحة روسيا واضحة في دخول الحرب هاهي احلامها القديمة
جميعا تتحقق دفعة واحدة . البلقان والبلطيق والبحار الدافئة . ثم الانفتاح على
الغرب الذي ظل طويلا يفتقر عليها عونته التقني والراسالي .

وعلى ذلك حق للامبراطورية العثمانية ان تنحس خيفة من لقاء خصم الامس
واتفاقهم . وتوقعت ان تحالف روسيا والغرب لابد ان يكون على حسابها . وقد كانت
محقة فهي لذن الطرف الوحيد الذي سبق الى الحرب اضطرابا دفاعيا عن وجوده
فاسرعت للاتحاق بدول الوسط .

وقد ان للثانيتين انجلترا وفرنسا ان تصلا لاتفاق بشأن الاجراء غير التركية من امراطورية آل عثمان . فقسما ممتلكاتها العربية بينها اما البلدية ضمن اختصاص الروس . وكانت لول انتصارات الحرب دبلوماسية . اذا استطاع الحلفاء جر ايطاليا بعيدا عن الحلف الثلاثي وذلك بتلويح لها بمكاسب اقليمية على حساب النمسا ، وبرقة وطرابلس في شمال افريقيا .

وحدث الانفجار واشتعلت الحرب على الصورة التي نقلناها في الحلقة الماضية . وبعيدا عن كل الحسابات ، ووراء كل توقعات مشعلها جاءت الحرب بما لم يتصوره احد . وكانت آثارها ونتائجها من الجساسة بحيث شكلت تاريخ المستقبل لنصف قرن بعدها .

لم يتصور احد ان تكون بهذا الامتداد الزمني والتدمير . حيث حروب الماضي لم تكن حينها زالت عن الازهان ، مجرد صدامات سريعة خاطفة بين جيوش محدودة العدد . تكاد تبدأ وتنتهي دون ان يشعر بها المدنيين ولا يتجاوز ضحاياها بضعة الالف مالم تتواصل سلسلة المعارك على شاكلة ماوقع ابان الحروب النابليونية . وبالتالي لا تقير عميق لما على الثروة القومية .

فاذا بصادم ١٩١٤ يستمر اربع سنوات تنطاحن فيه جيوش تحصى بالملايين ، وكذا ضحاياها . اما نتائجها الاقتصادية والسياسة فقد رفعت دولا وخففت اخرى . فانجلترا وفرنسا المنتصرتان لم يكن حالهما بالفضل من المانيا المهزومة . وستجبرها نتائج هذه الحرب في النهاية على التواضع والتخل عن المقاعد الاولى لبحر جدد ، ولكن دعونا لانسق الاحداث .

حتى ١٩١٧ كانت الحرب تسير على وتيرة بطيئة حتى وصلت الى وضع استراتيجي جامد . كل طرف مخندق في خطوطه بواجه الاخر في حرب استنزاف لا حيوية فيها ولا يستطيع لن يدعى عليه النصر . في ذلك العام بدأت الاحداث تأخذ طابعا اكثر سرعة .

فقد انهالت اخيرا الجبهة الروسية بعد سلسلة من الهزات . واضطر القيصر الروسي لتوقيع اتفاقية انتهاء الحرب مع المانيا . لكن هذا لم ينقذ بلاده من الانهيار الداخلي . فاشعلت الهزيمة غضبة الجماهير وكشفت اوجه القصور في النظام القيصري . وهي الفرصة التي استغلها البلشفيون فركبوا الموجة التي الفت بهم الى سدة الحكم . هكذا ظهرت الدولة الاشتراكية الاولى في العالم . ودخلت الابدلوجية معترك السلسلة لتفرض نفسها بشكل غير مسبوق على الدبلوماسية والصراع الدولي .

ايضا في عام ١٩١٧ دخلت الولايات المتحدة الحرب . وكان ذاك حدثا فريدا ونقطة تحول في تاريخها وتاريخ العالم . فهي الخطوة التي نقلتها من قوة اقليمية محسرة نفوذها طراعية بما لا يتجاوز قاروق نصف الكرة الغربي الى قوة عالمية بين مصاف الدول العظمى .